تشابه المساكن خطر نفسي واجتماعي..كيف..؟ *

أ.د. وجيه فوزي يوسف

إن التقدم السريع في التكنولوجيا قد نتج عنه إمكان عمل بيئة طبيعية في إمكانها خلق مجال يتلاءم مع متطلبات حياة الإنسان.

لقد تم تطوير المواصلات والاتصالات والتخلص من القمامة والتحكم البيئي بدرجة أن أصبح من الممكن جعل كل مكان يصلح للمعيشة فيه.

ومن المعلوم جيداً أن المعيشة تعتمد أيضاً على عوامل تتعلق بالانفعالات والأحاسيس وكذلك الروحانيات التي لا نعلم عنها الكثير حتى الآن.

وعندما طُبقت التكنولوجيا في معظم أساليب معيشتنا لم تعط العناية الكافية للاعتبارات العاطفية التي انعكست علينا نتيجة لذلك. فبالرغم من المتاعب التي يلاقيها الناس في المدن الكبيرة وما يعانونه من توتر الأعصاب نتيجة لاستخدام وسائل المواصلات من طائرات، قطارات، ومركبات وما ينتج عنها من إزعاج ومن تلوث للبيئة فإن الغالبية العظمى من الناس تتمنى لو أنها انتقلت إلى هذه المدن تاركة ورائها الريف بما فيه من هدوء وشاعرية وهواء نقي ومعيشة تتميز بإيقاعها البطيء.

ويبدو أن وجود فرص العمل والإدارات والهيئات في المدن وكذلك النشاط الاقتصادي المتميز لها، ووجود مراكز للأنشطة الثقافية والدينية التي هي أساس حضارة المدينة هو العامل الجاذب للناس بالإضافية إلى أن إحدى وظائف المدينة الهامة هي إمكانية إمداد الناس بالمساكن وتواجد المصانع والحدائق العامة.

هذه الجوانب الجاذبة للناس بما فيها من فرص كبيرة لجمع المال جعلت الناس تتحمل التلوث البيئي والإرهاق الجسدي والعصبي واختناقات المرور والافتقار إلى الخصوصية والابتعاد عن الطبيعة وكثيراً من المضايقات الأخرى.

إلا أن ما يضايق الناس هو حرمانهم من العلاقات الاجتماعية والتي هي أكثر أهمية لمعظم الناس عن المميزات والخصائص الطبيعية والبيئية التي يعيشون فيها.

---

* مجلة المهندسين، السنة ٤١، العدد ٣٦٧ ،أكتوبر ١٩٨٥، ص ٥٢ – ٥٧

يبدو ذلك واضحاً عندما نلاحظ تضرر المنقولين إلى مناطق إسكان جديدة عندما يتركون المكان الذي كانوا يقطنونه.

المباهج الجديدة لا تعوضهم عن حرمانهم من علاقاتهم التي أنشئوها عندما كانوا في موطنهم السابق. يزداد الإحساس بالضيق إذا كان القائمون على تنفيذ هذه المناطق السكنية لهم تصورات تختلف عن تصورات الناس الذي من أجلهم أقاموا هذه المدن وأن ما يقدموه للناس يختلف عن واقع الحياة التي يعيشها الناس وأن ما يميزهم كان على تصوراتهم الشخصية والتي في نظرهم هي الأفضل للناس.

لقد أثبتت الدراسات الخاصة بتطور الناس كمخلوقات أن الناس لم تتغير كثيراً عبر آلاف السنين بالرغم من تأقلم الناس على المعيشة في مناطق متضاربة في الأحوال الجوية والطبيعية.

وظلت احتياجات الناس الرئيسية كما هي بدون تغيير.

إن كثيراً من وظائف الجسم الفسيولوجية مثلاً تعمل في توافق مع دورات الليل والنهار والاحتياجات الأساسية للإنسان ظلت كما كانت وهي الرغبة في الخصوصية والأماكن المفتوحة والاتصال بالطبيعة والانطلاق. وبالرغم من ذلك فإن أناساً كثيرون يعيشون في المدن التي لا تهيئ ما يكفي من هذه المتطلبات ويبدو أن بعضهم قد تعود على احتمال المشاكل والصعوبات الناجمة عن التعرض المستمر لمثل هذه الضغوط. وليس خاف على أحد مدى التأثير البعيد لحياة الزحام في المدن المكتظة على الصحة البَدينة والعقلية والتي تظهر بوضوح على شكل أمراض مزمنة ونوبات قلبية أو حالات انتحار.

إن الإنسان يحتاج إلى اتصال وثيق بأقرانه ونعني بالاتصال الوثيق أن يستطيع الإنسان أن يبوح بعواطفه وأحزانه إلى شخص آخر قريب منه.

حقيقة أن قدراً كبيراً من جاذبية المدن تنشأ من توافر الفرص الكثيرة للاتصال بالناس إلا أن هذا القدر الكبير من الاتصالات الفعلية دائماً ما يجعل الاتصالات الشخصية سطحية وغير مرضية وأن الوحدة والغربة هي السمة الغالبة للمدن الكبيرة والمجتمعات السكنية الكبيرة عنها عن الحياة في الريف.

إن الاتصال الشخصي الحميم له فائدة كبيرة إذ أنه يحمي الإنسان من الصدمات ومن الاحباطات.

إنها وسيلة طبيعية لإصلاح الأضرار النفسية ولدرئ هذه الأضرار يجب أن يحاط الشخص العادي بثلاثة مجموعات من المقربين إليه وهم العائلة ومجموعات الأطفال وهم يلعبون ويمرحون وأخيراً الجيران.

لقد أثبتت الدراسات والأبحاث أن الحرمان من الاختلاط بالناس له علاقة مباشرة بالاختلال العقلي ولقد أثبتت الدراسات أيضا أن المعدلات المرتفعة من أمراض انفصام الشخصية تحدث بين مجموعات الناس التي تعيش منعزلة في الفنادق وفي حجرات مستقلة بالعمارات أو الذين يعيشون منفصلون عن المجاورة التي كانوا يعيشون فيها.

وهناك ارتباط وثيق بين تعدد المشاكل النفسية وتعدد الأصدقاء الذين يعرفهم الشخص فكلما قل عدد الأصدقاء كلما زادت هذه المشاكل تعقيداً.

ولقد وجد أن معدلات الجرائم تزداد بين الناس الذين يعيشون في معزل من الناس.

إن الإنسان المصاب بالاكتئاب النفسي يميل إلى الانسحاب وعدم الاختلاط بالناس. إن معيشة الريف بتقاليدها في إمكانية تجميع الناس بعد الانتهاء من أعمالهم أمام بيوتهم أو جلوسهم في المقاهي يمثل بيئة صحية بل أكثر صحية من المقيمون في فيلات تحيط بها الحدائق والأسوار من كل جانب والتي تجعلها منعزلة في جزر تمنع اختلاط الناس ببعضهم.

إلا أن ذلك المجتمع لا يمنع مطلقاً أن يكون لكل فرد خصوصيته وحدوده التي يشعر بداخلها بحريته وهذه كلها من شأنها الحفاظ على الكثافة السكانية وتبين عدم المساس بالترتيب الاجتماعي للطبقات المختلفة من الناس وتباعدهم المطلوب في مثل هذه الحالات وعدم الاحتكاك المباشر بين مجموعات الناس وهي المسافة الشخصية التي يشعر الإنسان بالأمان في حدودها.

ولقد عبر عنها مارتين هايدجار بأنها عبارة عن فقاعة تحيط بالإنسان وتفصله عن الكائنات الأخرى.

ولقد قسم إدوارد هول هذه المسافة إلى جزأين، الجزء الأول يتكون من المسافة القريبة والمسافة البعيدة. المسافة القريبة وهي تتراوح ما بين ٤٥

إلى ٧٥ سم والتي يستطيع الشخص أن يصل بأطرافه إلى الشخص المقابل، والمسافة البعيدة وهي مسافة تتراوح ما بين ٧٥ إلى ١٢٥ سم وهي المسافة التي لا يستطيع الإنسان أن يلمس بأطرافه إنسان آخر إلا إذا مد كل منهما يديه وفي هذه الحالة تتقابل أصابعهما فقط.

والجزء الثاني يسمى المسافة الاجتماعية وهي المسافة القصوى التي تفصل بين الشخص ومجموعة من الناس والتي إذا تباعدت فلا يعتبر الشخص ضمن هذه الجماعة وبذلك يكون عرضة للاعتداء عليه من الخارج.

والدراسات التي أُجريت حول التقارب والازدحام أثبتت أن هناك علاقة وثيقة بين الفراغ المخصص للإسكان والصحة العقلية والنفسية، وأنه إذا قلت المساحة المخصصة لكل شخص عن المعدلات المتعارف عليها تزداد المشاكل النفسية زيادة كبيرة. إلا أن هذا الحد الفاصل يتغير بتغير الحالة الحضارية للمجموعة. فالناس في الشمال في المدن الإسكندنافية والإنجليزية يحتاجون إلى مسافة شخصية أكبر مما يحتاجه مواطني بلاد البحر الأبيض المتوسط.

نستطيع القول إذاً أن الناس ترتبك إذا ما تواجدوا في تقسيمات لم يتعودوا عليها وقد يغلب عليهم الخوف. إن الناس غالباً ما تشعر بشيء من الارتياح إذا ما نزحوا إلى أماكن تشابه الأماكن التي تعودوا على العيش فيها وإذا لم يستطيعوا التعود على المكان الذي أُعد لهم لهم والمختلف عن بيئتهم فإن ذلك يسبب لهم الاختلال العقلي. فالإنسان مثلا يشعر بالاطمئنان والراحة في مسكن به حجرات مترابطة مع بعضها ومكونة وحدة واحدة لها علاقة بما حولها من مساكن عن الوحدة السكنية المفككة التي تتأثر عناصرها بدون الارتباط بأي شيء.

لقد ثبت أن شكل تخطيط المدن يؤثر على تباعد أو ارتباط الناس ببعضهم، فمثلاً التخطيط النجمي يقرب الناس من بعضهم، أما التخطيط الشبكي فإنه يؤدي إلى تباعد الناس عن بعضهم.

لقد كانت المدن تعتمد على تزايد الناس في قوتها الاقتصادية والإستراتيجية، أما وقد اكتظت المدن بالسكان وأصبح معدل زيادة السكان شيئاً غير مرغوباً فيه علاوة على التدهور البيئي وقلة المصادر الطبيعية فإن ذلك أثر بالسلب على الأهمية الاقتصادية التي تولدت عن زيادة السكان. أضف إلى ذلك أن الكثافة السكانية تصبح لا تطاق وتسبب القلق في الأحياء السكنية التي لها

أشكال مملة وتقل فيها العلاقات الشخصية عن المناطق السكنية التي لها جاذبية خاصة تشد الاهتمام إليها.

إن مراكز المدن ووسط المدينة تجذب الناس أكثر من الأحياء الأخرى لأن فيها نوع من الطاقة والحيوية والأنشطة المختلفة المحببة للنفس.

وفي جميع الحالات فلقد وجد أنه كلما زادت الكثافة السكانية في منطقة كلما زادت معدلات الأمراض والأوبئة علاوة على تدهور البيئة نفسها من سيء إلى أسوأ وكذلك الحالة الاقتصادية. ولقد وُجد من الدراسات أن قلب المدينة هو للأسف مركز الأوبئة.

ويجب ألا يغرب عن البال أن هذه المشاكل الصحية ليست كلية وليدة الكثافة السكانية نفسها بل بسبب ما يتعلق بمتغيرات الكثافة مثل نقص الخصوصية وسوء التغذية والضوضاء وعدم الشعور بالأمان المادي والاقتصادي والنفسي.

في المدن التي يقطنها سكان من أجناس مختلفة تزيد نسبة الجرائم فيها عن تلك التي يقطنها مواطنون من نفس الهوية. مثال ذلك مدينة طوكيو باليابان التي لها كثافة سكانية أكثر من مدينة نيويورك بأمريكا. نجد أن معدلات الجرائم في طوكيو أقل من مثيلتها في نيويورك وكذلك الانتحار.

إن الأجناس المختلفة غير المتجانسة التي تعيش في المدن الكبيرة بأمريكا هي السبب في الصراع الاجتماعي الذي نسمع عنه كثيراً.

إن الأشخاص يختلفون بشدة في تصورهم للبيئة. هذه الاختلافات تنشأ من الاختلافات في الحساسية والتوازن الخاص بحواسنا. ولكنها في معظم أجزائها نتيجة عملية الترشيح للانطباعات الحسية طبقاً لما يراه كل شخص ذو أهمية حسب طريقته في الحياة.

وحيث أن هذه الأنواع من طرق الحياة نابعة من العادات والتقاليد فيجب على المصممين لمشاريع الإسكان أن يكونوا متفهمين وعارفين للقيم والأفضليات للمجموعات الحضارية المختلفة وأن يتفهموا العالم الحسي لهذه المجموعات. ولكن لسوء الحظ فإن التركيز غالباً ما ينصب على الوسائل المثلى للاستفادة من الفراغات وتحسين المرافق والتوصيلات الصحية وبذلك تحولت المجاورة السكنية إلى عمارات وشقق مما يجعل الاتصالات بين الناس

والاجتماعيات شبه مستحيلة.

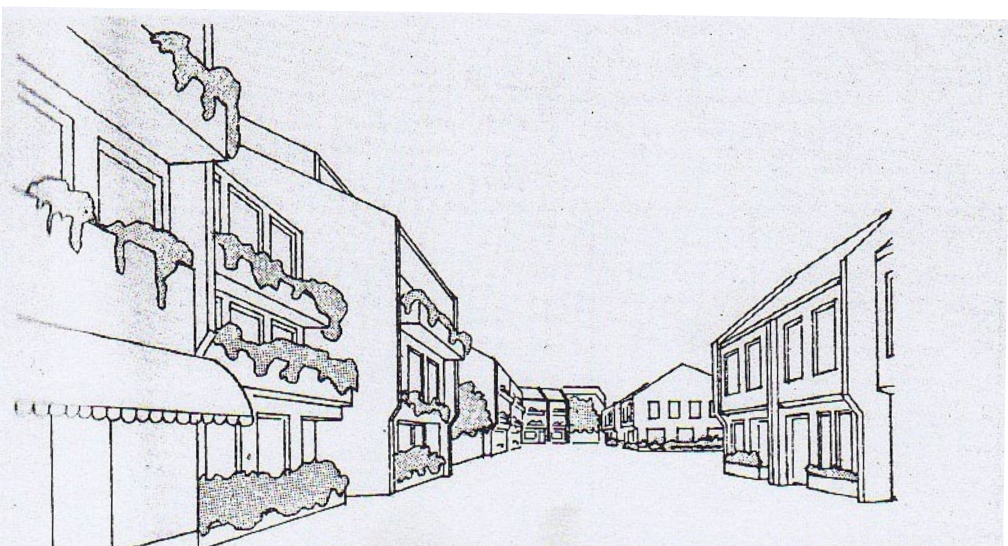
إن تهيئة الاختلاط وتعارف السكان ببعضهم يجب أن يأخذ أهمية بنفس الدرجة على الأقل التي تُعطى لمعدلات الإشغال السكني والتسهيلات في المرافق.

هذه الاتصالات الاجتماعية كانت موجودة في المجاورات السكنية القديمة وموجودة في الحارة وفي الدكان الصغير وفي أماكن العبادة وفي الأفنية الداخلية وأحواش المباني والتي قد قُضي عليها في العمارات العالية ذات المصاعد السريعة.

وبجانب التغذية المناسبة والهواء النظيف فإن الإنسان يحتاج إلى طاقة للتفكير ولا يمكن للإنسان أن يطور تفكيره إلا إذا عاش في مجال به متغيرات متلاحقة وإلا وقع فريسة التكرار والتفكير المتجمد.

إن تطوير التفكير المتجانس للأفكار لا يتم إلا بالتغيير والتنويع في الانطباعات والأحاسيس. إن عدم وجود مثل هذه التغيرات والتنوع وحرمان الناس منها يؤخر في عملية النمو وخاصة بالنسبة للأطفال الصغار. إننا نستطيع أن نلاحظ ذلك في كيفية اختيار الناس لحاجياتهم وإجراء الديكورات داخل منازلهم فهم يفضلون الشيء الذي يجذب النظر ويحتوي على التنوع.

نأخذ مثال طريق المشاة. إن طريق المشاة في المدن تبين أن الطرق التي تلتف حولها المباني أفضل كثيراً من الطرف الطويلة المستمرة التي ليس بها أي تقاطعات.



إن الشارع الذى يخلو من الخدمات الخاصة بالمشاه يعطى الاحساس بالكآبة وعدم الانتماء .

وبجانب تحقيق الحاجة إلى منشطات للرؤية فإن الناس يحتاجون إلى الإحساس بالمغامرة والتي يمكن تحقيقها بعمل بيئة بها تغييرات حسية متلاحقة ومناظر متغيرة بطريقة غير متوقعة.

إن السرور والبهجة الناتجة عن استقبال التأثيرات والانطباعات غير المتوقعة ليست خاصية من خواص صغار السن فقط بدليل أنه في مجال السياحة مثلا نجد أن السياح من جميع الأعمار يملؤهم النشاط والحيوية عندما يزورون منطقة لأول مرة، إن المفاجآت التي تنتظرهم والتغيرات المتلاحقة التي تمر أمام عيونهم تجعلهم يتحركون بنشاط لافت للنظر.

إن مناطق الإسكان الجديدة تخلو للأسف مما يميزها عن غيرها من المناطق وتكاد تتشابه في كثير من الأحيان. نجد مثلا أن مناطق الإسكان الجديدة في سيناء لا تختلف كثيراً عما نراه في مساكن السواح والشرابية في القاهرة وعندما تزدحم هذه المدن بالمباني والسكان فسوف لا يستطيع الناس تحديد اتجاهات طرق المدينة الجديدة ولن يتعرفوا على المكان التقريبي للمراكز الرئيسية لها. والسبب في ذلك أن هذه المدن الجديدة ليس بها من العلامات ما يميزها عن غيرها من المدن ولا من الأشكال التي يستطيع الإنسان أن يتذكرها عندما يأتي ذكرها على أفواه الناس.

إننا نتكلم مثلا عن برج إيفل وكاتدرائية نوتردام وقوس النصر فنذكر على الفور باريس. إننا نتكلم في الخارج عن الأهرامات ومعبد الكرنك يعرفون أننا نتكلم عن مصر. أما بالنسبة للمدن الجديدة فنحن إذا أتي ذكرها نلوذ بالصمت ونحملق في الفضاء.

إن العلامات المميزة في المدينة تعطيها طابعها وشخصيتها على أن تكون هذه العلامات المميزة في تجانس مع ما يحيطها من المباني وإلا فقدت قيمتها.

وكلما تقدمت المدينة في السن كلما حفلت بما يميزها عن غيرها من المدن وأصبح من العسير أن يستطيع الشخص أن يستوعب كل ما فيها من علامات ومراكز رؤيا عديدة. وهذا ما دعا المخططون إلى فصل الإسكان عن المناطق الصناعية الثقيلة كما تم فصل طرق المشاة عن طرق مرور المركبات.

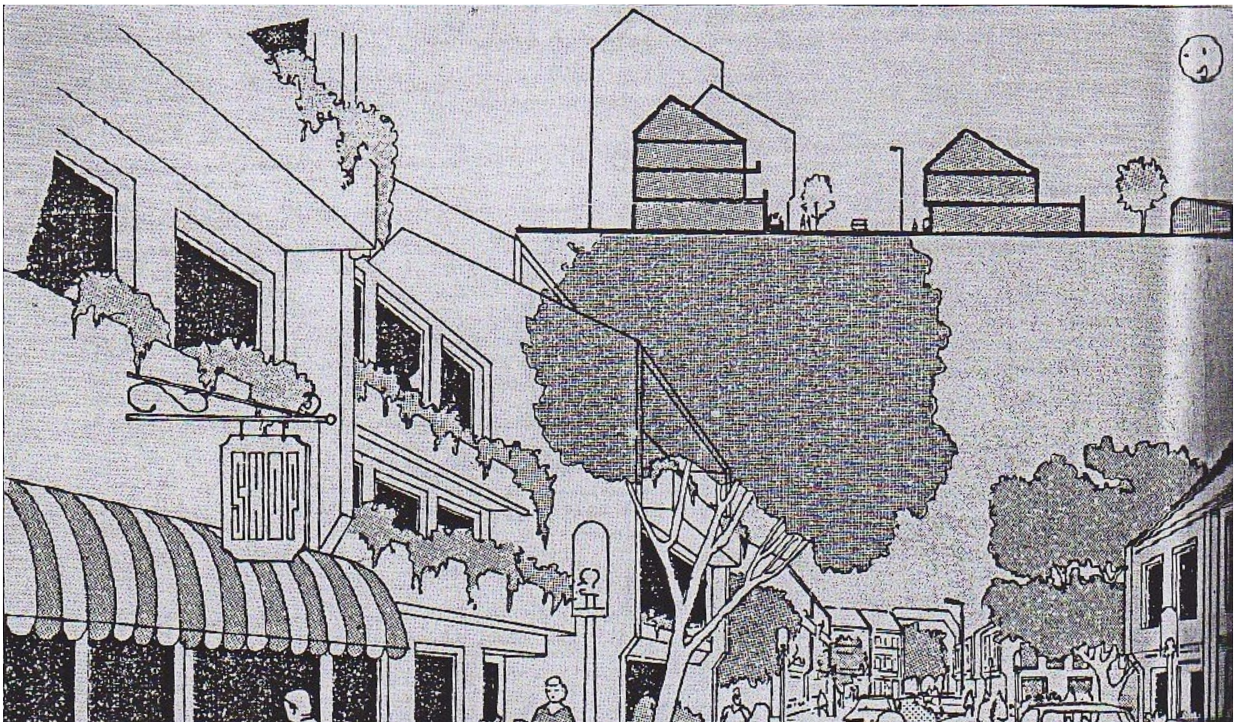
ولقد كان لتأثير نظرية طوني جارنييه في تصميمه للمدينة الصناعية أن تم

فصل الوحدات والعناصر المتشابهة في المدينة وتجميعها في مجموعات مستقلة. هذه النظرية تتوافق مع التفكير العقلاني للإنسان الذي إذا قابلته مشكلة فإنه يجزئها حتى يستطيع أن يحل كل جزء وبالتالي تقل التعقيدات ويفهم المشكلة.

إلا إن ذلك أدى إلى ظهور المدينة بشكل صارم وخالية من الحيوية نتيجة للاتجاه إلى النموذج العقلاني البحت.

ولقد وصل الأمر في بعض المدن إلى الحد الذي تم فيه فصل كبار السن عن الحياة الطبيعية لباقي السكان وأقيمت لهم أبنية مصممة خصيصاً لتفي بالاحتياجات الخاصة بهم وبمعيشتهم اليومية.

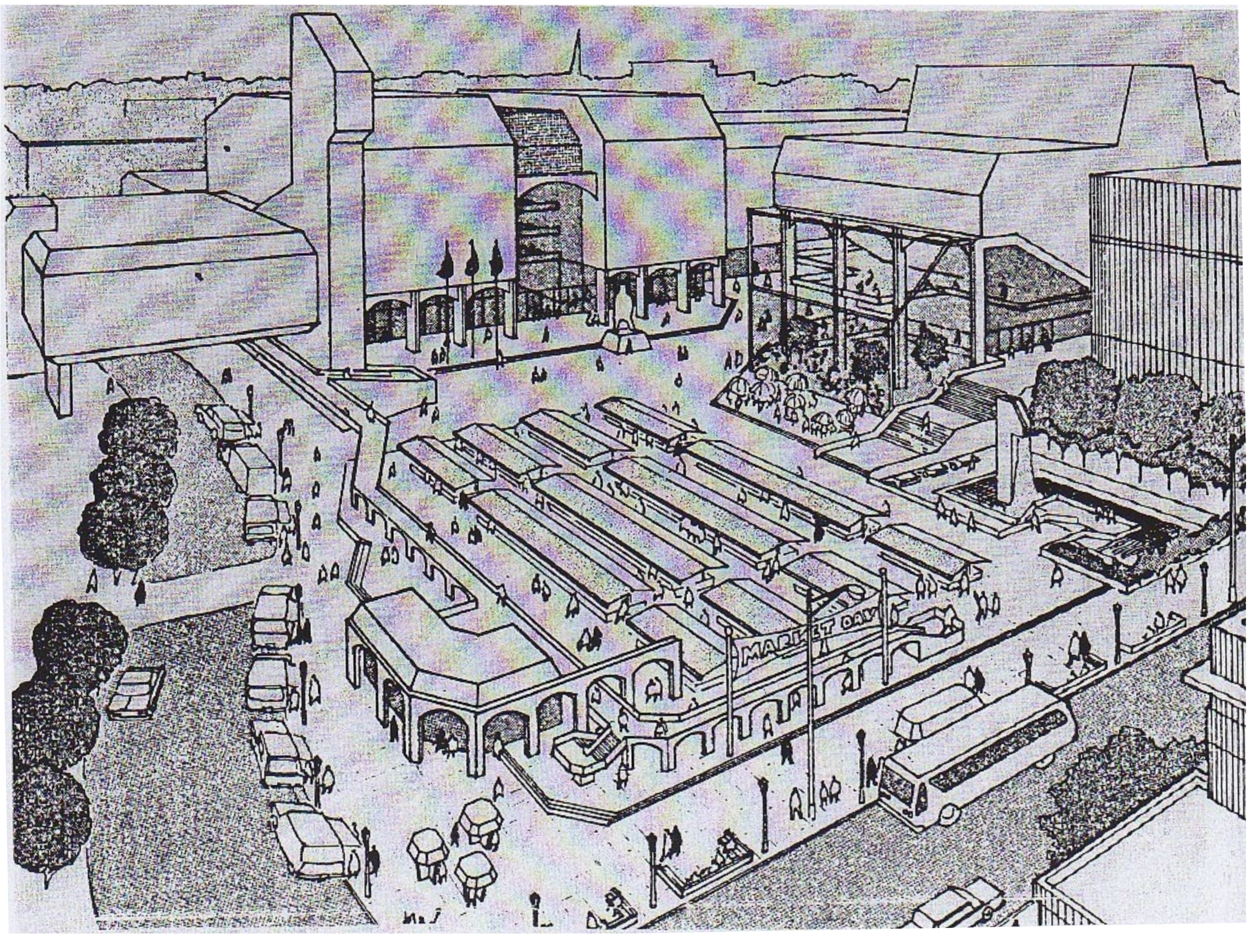
وبالرغم من صعوبة تصميم المدن الجديدة لتحتوي على مميزات المدن العتيقة من حيث التنوع وجاذبية عناصرها الكثيرة إلا أنه يجب أن يكون هدف المخطط هو عمل أقصى ما يمكن من نقط الجذب والتنوع البصري وأن يتركوا فراغات في المدينة ليتبارى فيها المعماريون ويطلقوا لخيالاتهم العنان حتى تأخذ المدينة الشخصية الخاصة بها.



إن عمل الأرصفة العريضة وتحديد عرض الشارع وزراعة الأشجار وتهيئة أماكن للجلوس يعطي للشارع خاصية الخدمات الكثيرة التي يتوقعها الإنسان في المدن الجديدة.

إن المدن الجديدة غالباً ما تبنى على صحراء خالية قبل أن يطأها ساكن. وفي هذه الحالة يصعب أخذ رأي المواطنين فيما يجب أن تكون عليه المدينة أو الوحدات السكنية بها بالإضافة إلى أن الإنسان لا يستطيع أن يبدي رأيه في مدينة جديدة خلاف ما تعود عليه في موطنه أو مما نعلمه من الماضي وقلة من الناس هي التي تستطيع أن تتصور ما سوف يكون عليه حال المدينة بعد إتمامها وخاصة إذا كانوا سوف يسكنون فيها.

ولذلك فمن المستحب أخذ آراء الناس من مختلف التخصصات والاتجاهات والثقافات والبيئة والحالة الاقتصادية والاجتماعية الذين سوف ينتقلون إلى المدن الجديدة والتعرف على متطلباتهم حتى لا يتفاجئوا ببيئة جديدة عليهم غريبة عنهم يصعب التأقلم فيها. وحالما ينتقل هؤلاء الناس إلى المدن الجديدة فإنه يصبح من السهل التعرف بعد ذلك على ميولهم واحتياجاتهم الحقيقية وبذلك يمكن تكملة المدينة بما يتناسب مع هذه الاحتياجات وسوف يساعد على التوصل إلى هذه النتيجة لو أن الأخصائيون الاجتماعيون شاركوا بآرائهم مع المخططين منذ البداية.



وضع الأبنية العامة حول السوق وجعل مداخلها تفتح عليه يعطي الانطباع باستمرار الفراغ ويصبح الميدان إمتداداً طبيعياً للمباني.

لقد وجد أن تصميم المساكن في تشابه وترتيب هندسي متكرر يثير الملل ويسبب أكثر الضرر لنفسية السكان وهذا بالأسف لا يمكن تجنبه لأن العامل الاقتصادي في الإسكان هو الذي يحتم تكرار الوحدات وتشابه المباني وهذا يشكل حرماناً للناس من الوجود في منطقة إسكان بها تنوع وتنشيط للخيال والإحساسات المتغيرة التي بدونها يشعر الإنسان بالكآبة والاكتئاب.

إنه يجب أن يكون معروفاً جيداً أن المسكن لا يتحدد بمساحته فقط ولكن بعلاقته بالمساكن الأخرى وبالمجاورة السكنية ككل وأن المساكن ونوعيتها تحدد شخصية السكان، فالإسكان في بيئة متدهورة تؤثر على سكانها بالسلب.

والسؤال الآن هو إلى أي مدى يتوافق الإسكان والحديث مع الناس. إن المجتمع الجديد أصبح انعزالياً ومتفرقاً بالمقارنة بالعصور السابقة عندما كان الغالب هو العلاقة المتكاملة بين الناس وكان هذا أهم عنصر إنساني في معيشة الناس.

وبالرغم من ذلك فإن الأساسيات التي يحتاجها المجتمع الحديث ما زالت موجودة كما هي لم تتغير بدليل احتشاد الناس في المراكز التجارية والرياضية والثقافية.

إن هذا يؤكد على استمرار احتياج الناس للاتصال والمشاركة ومن هذه التجمعات المكدسة يستطيع الإنسان أن يتخيل ماذا كانت عليه المجتمعات العمرانية القديمة من حيث التنوع والمفاجأة والانتماء إلى المنطقة.

نستطيع القول إذاً أنه كلما كانت مناطق الإسكان الجديدة تشابه في مضمونها المدن القديمة من حيث التنوع والتركيب واحتوائها على فراغات كثيرة حيث يستطيع الناس الجلوس حولها يتحادثون ويشاهدون ما حولهم ويتصرفوا كمخلوقات آدمية كلما كان هذا المكان ناجحاً.

ومن ناحية أخرى يجب ملاحظة أن الناس لها رغبة في إحياء مراكز المدن القديمة التقليدية بدليل تجمعهم في المناطق الشعبية في المناسبات والأعياد والتي تشابه في مضمونها حياة أهل الريف. كل هذه الملاحظات توضح الاحتياج والرغبة في جعل مناطق الإسكان الجديدة معبرة عما يجيش في صدور الناس من الرغبة في التعايش بالقرب من بعضهم والمشاركة

في الأنشطة المختلفة.

إن التحدي الذي يواجه المهندسون الآن بالنسبة إلى مشرعات الإسكان الجديدة هي إيجاد علاقة أفضل بين الناس والمنطقة السكنية. إن ذلك لن يتحقق بإحياء أشكال المباني القديمة ولن ينفع أيضاً استعراض التكنولوجيا في البناء إنما يجب على المهندسون عمل رحلة داخل عقول الناس ليتعلموا ما هو الشيء الإنساني حقاً لينفذوه لهم.

لقد قال لي أحد المثقفون أنه بالرغم من الأشكال المختلفة للمباني من الخارج إلا أن جميعها تتشابه من الداخل وإنك إذا دخلت بيتاً تعرف على الفور أين يقع الحمام وغرف النوم ولذلك عندما قررت أن أبني بيتي صممته بنفسي لأني كنت أريد أن أشعر أنني أعيش في دوار.
